الأفضية الذهنية و السيميوزيس أو التأويل اللامتناهي.

The mental space and the semiosis or non-interpretation.

أ/ زكور نزيهة[1]، دكتور: صالح غيلوس

nazihazakour05@gmail.com

Sghilous12@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/07/13 تاريخ القبول: 2019/09/18 تاريخ النشر:2019/11/20

الملخّص:

ظهرت اللسانيات العرفنية نتيجة التقدم و التطور الذي مسّ الأبحاث اللسانية عامة مثل(اللسانيات الحاسوبية و اللسانيات العصبية و علم النفس المعرفي)، وكان لها الدور الكبير في تغيير الرؤية للنص الأدبي، بطرقه من وجهات نظر جديدة ، وخصوصا الأفضية الذهنية، و التي بفضلها أعطي للدلالة جانبا وقدرا هاما، بفضل العالم اللساني(فوكونياي)، حيث عني بتفسير العلاقة بين دلالة الأبنية اللغوية المنجزة و الآليات الذهنية التأويلية، فالعمليات الذهنية تتفاعل لتحقيق (السيميوزيس) انفتاح النص من خلال تمازج هذه الأفضية الذهنية لكل من (الكاتب/ القارئ).

الكلمات المفاتيح: التأويلية، الفضاء الذهني، بناء الأفضية، مبدأ الاهتداء، السيميوزيس.

Abstract :The cognitive linguistics emerged as a result of the progress and development that touched linguistic researche in general from computation linguistics, neurolinguistics, and cognitive psychology.it plyed a major role in changing the vision of the literary text in it's a new perspective, especially mental spaces, which thanks to the linguist(fouconnier), he meaned in explaining the relationship between the linguistic significance accomplished and the interpretation mental mechanisms, and the mental processes interact to achieve the(semiosis) openness of the text by mixing this mental spaces for both(the writer/ reader).

Keyword:interpretation, mental spaces, space builders, accessibility principle, semiosis.

---

[1]- **المؤلف المرسل:** أ/نزيهة زكور ، **الإيميل:** nazihazakour05@gmail.com

توطئة:

الحديث عن التأويل هو حديث عن وجود خطاب شفوي يربط بين مرسل و مرسل إليه؛ حيث ينتج الأول خطابه بناء على تصوراته الذهنية و اعتمادا على علامات لغوية تترجم تصوره الذهني، و قدرة ثانية تتعلق بالمتلقي و الذي يشترك بالضرورة مع الملقي في لغته و تراكيبها و ثقافتها لتكون له القدرة على تأويل الخطاب و الوصول إلى دلالاته. أما إذا ما تعلق الأمر بالخطاب/النص المكتوب فإن هذا الاشتراك حتما سيكون بين الكاتب و القارئ.

و تكمن **أهمية** هذه الورقة البحثية في ربط الصلة بين ما جاء به(بورس) في مجال دراسته للعلامة و تحقق السيميوزيس، و مع ما طرحه(فوكونياي) من خلال نظرية الفضاءات الذهنية بناء على مبدأ الاهتداء، و بالاعتماد على السياق التداولي.   و للبحث في هذه القضية طرحت **الإشكالية التالية:** ما مدى مساهمة الأفضية الذهنية في تأويل النصوص و ضبط السيميوزيس؟

و **الهدف** من هذه الدراسة هو الوصول إلى كيفية فهم الأبنية اللغوية من جمل و نصوص اعتمادا على نظرية الفضاءات الذهنية، و كيف أن فضاء ذهني يحيل على فضاء ذهني آخر، و من ثمة نلمس أهمية نظرية الفضاءات الذهنية في العملية التأويلية.

مع التطور الذي يشهده حقل اللسانيات و تداخلها مع جملة من الروافد اللغوية و الأدبية كالسيميائيات، التي أولت اهتمامها بتحليل النصوص و تأويلها و من أبرز النظريات التي اشتغلت على الخطاب/النص نظرية العلامة لصاحبها(ش.س. بورس) و يضاف إلى هذا العلم اللساني العرفنيّ (فوكونياي) و هو صاحب نظرية الأفضية الذهنية، هذه النظرية التي تتمثل في ذلك « المنوال النظري الذي يتخذ من الخطاب مجالا صريحا يبحث في ترابطاته العرفنيّة و في ما به تنبني عوالمه و تتبلور في الذهن»(الأزهر الزناد، 2011، ص 8)

في ما يلي محاولة لشرح و توضيح بعض المصطلحات كالتأويلية، و السيميوزيس/ التأويل اللامتناهي، و الافضية الذهنية (التصورات الذهنية) مع ابراز دور الافضية الذهنية في تحديد و ضبط الدلالة أو المعنى المقصود من الخطاب، تُنتَج الخطابات اليومية، و كذا النصوص بشكل كبير، و لا تُلقى هذه الأخيرة هكذا و فقط و إنما تحمل معان يراد وصولها للآخر (المتلقي) و حصول هذه المعاني يكون بتآلف الألفاظ مع بعضها البعض، فيتوصل القارئ/المتلقي إلى استنتاج معاني هذه الوحدات

من التآلف الذي تم بين الألفاظ« و تتم هذه العملية بواسطة ما يسمى بقواعد التأويل التي تضم بنيات تأويلية مجردة إلى العبارات اللغوية، أي إلى تلك الوحدات الكبرى» (جورج لايكوف، و مارك جونسن، 2009، ص 7)

يدفعنا هذا إلى التمييز بين نوعين من المعنى أولا المعنى الذي نستشفه من البنية اللغوية للجملة أو التركيب، و ثانيا المعنى الذي ينتجه السياق الذي ترد فيه العبارة أو التركيب فهناك« فرق واضح بين الخصائص الدلالية التي تفيدها عبارة لغوية ما بمقتضى بنيتها (و هو ما يعرف في الأدبيات اللسانية بالمعنى النووي) و بين الخصائص الذريعية أو البلاغية التي تفيدها العبارة اللغوية انطلاقا من الاستعمال و السياق(و هو ما يعرف بالمعنى الهامشي)» (نفسه، ص 8) و عملية الوصول للمعنى و الكشف عن حقائقه يكون عن طريق عملية التأويل.

التأويل: مصدر على وزن(تفعيل) من أوّل يؤول، تأويلا، و مادة الكلمة هي(أول) قال(ابن فارس): أول: أصلان. هما: ابتداء الأمر و انتهاؤه من استعماله في الابتداء قولك: الأَوّل و هو مبتدأ الشيء. و من الانتهاء قولهم: الأيل، و هو الذكر من الوعل، و سمي أيلا لأنه يؤول إلى الجبل و ينتهي إليه، ليتحصن فيه. و قولهم آل، بمعنى: رجع، و الإيالة: السياسة، لأن مرجع الرعية إلى راعيها. و آلُ الرجل: أهل بيته، سموا بذلك لأن مآلهم و مرجعهم و انتهاءهم إليه، كما أنهم هم ابتداؤه. و الأَول: بمعنى الانتهاء و المرجع، و تأويل الكلام: عاقبته، و ما يؤول و ينتهي إليه.

و قال ابن منظور في بيان معنى هذه الكلمة: « الأول الرجوع، آل الشيء يؤول رجع، و أوّل إليه الشيء: رَجَعَه. و أَلتُ عن الشيء: ارتددت. يقال: طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع أي رجع، و الأيّل من الوحش: الوعر، قال الفارسي: سمي بذلك لمآله إلى الجبل يتحصن فيه» (فوزية دندوقة، 2009، ص 3) من خلال التعاريف اللغوية يبدو أن التأويل هو الرجوع إلى الشيء و الانتهاء إليه و إذا ما أسقط هذا على النص فإن القارئ و من خلال عملية القراءة يؤول إلى منتهى و معنى النص الذي أراده الكاتب.

أما اصطلاحا فقد لقي التأويل اهتماما و دراسة واسعة من طرف العلماء العرب و كذا الغرب فنجد أن النقاد العرب القدامى قد عالجوا موضوع التأويل « في إطار دراساتهم البلاغية، كما درسه الفقهاء و الأصوليون من منظور ديني، حيث ارتبط بتفسير القرآن الكريم، خصوصا في الآيات حمّالة الأوجه، فجاءت آراؤهم حوله مبثوثة في كتبهم.

مصطلح التأويل نال اهتماما كبيرا من الدارسين لارتباطه بمرجعيات مختلفة، فكانت له تعاريف عدة تنوعت باختلاف المرجعيات، وكان لظهور الفرق الدينية، أثر بارز في اكتسابه مفاهيم جديدة، لذلك يصعب إيجاد تعريف موحد نتيجة تعددية المفاهيم، فهو مصطلح زئبقي يتفلت من الدارسين، لذلك فإن أي محاولة لضبطه بدقة ستخضع حتما لوجهة نظر خاصة، قد تتغاير مع آراء أخرى، و يمكن طرح بعض الآراء التي حاولت تقديم تصور شامل لمفهوم التأويل.

عمل **الشريف الجرجاني في كتابه التعريفات** على وضع مفاهيم دقيقة للمصطلحات، وفيه يعرف التأويل بقوله: في الأصل الترجيع، و في الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب و السنة. هنا يتجاوز التأويل مفهوم التفسير، إذ يعالج ظاهرة لغوية تحتمل عدة أوجه تفسيرية، شرط خضوع أي تأويل إلى قرينة، أو سند نصي أو خارجي، ويشترط في العلوم الشرعية موافقته للكتاب و السنة.

أما **المعاجم الحديثة**، فنجد: التأويل في أدق معانيه هو تحديد المعاني اللغوية في العمل الأدبي من خلال التحليل وإعادة صياغة المفردات والتركيب و من خلال التعليق على النص؛ أي أن هناك درجات للتأويل و هذا الطرح يشمل الشرح و التفسير و يتجاوزهما من خلال التعليق، ذلك أن الشرح و التفسير ينتجان عن الفهم، في حين أن التعليق يتجاوزهما إلى فهم الفهم، وفق ضوابط معينة تحددها مبادئ التأويل.

في **المعاجم الغربية:** تزاوج المعاجم الغربية في طياتها بين المعاني اللغوية و الاصطلاحية؛ حيث يتدرج معنى التأويل بسيرورته المرحلية، و أهمها:

1. **الشرح:** عملية شرح لإعطاء معنى واضح لشيء غامض، أو هو شرح نص و إعطائه معنى.
2. **التفسير:** تأويل نص: التعليق عليه، و كذلك تفسير فعل أو سلوك.
3. **القراءة:** التأويل الصوفي، أو الاستعاري، أو الرمزي لنص ما هو قراءة، و هو كذلك عمل لإعطاء معنى رمزي أو استعاري لشيء ما.
4. **الترجمة:** تأويل ملفوظ ترجمته. (العيد جلولي، وعبد القادر خليف، 2017، ص 76،77)

و عملية التأويل يلجأ إليها المتلقي من أجل الوصول إلى المعنى المقصود من نص الرسالة؛ من حيث هو جملة من العلامات تحمل في ثناياها معان كامنة فيها، و تكون هذه المعاني مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد، و موضوع العلامة حظي باهتمام من قبل معظم المفكرين اللغويين الغربيين، منذ(دي سوسور)، و (يالمسلف) و غيرهما وصولا إلى الطرح الذي قدمه اللغوي الأمريكي**(شارل**

ساندرس بورس) هذا الأخير الذي كان من أشهر المفكرين الذين اهتموا بدراسة العلامات، مبينا آلية انتاجها للدلالة بواسطة سلسلة من الاحالات السيميوزيسية، محددا أنواع العلامات و آليات اشتغالها لإنتاج الدلالة و تداولها؛ حيث يعتبر أن السميوزيس هي موضوع السيمياء؛ لأنها تهتم بالسيرورة التي تؤدي إلى إنتاج الدلالة و تداولها في السياق.

و السميوزيس أو كما تعرف بالسيرورة المنتجة للدلالة هي مصطلح سيميائي يقصد به السيرورة المؤدية إلى انبثاق علامة جديدة، فالعلامة دائما هي وافد جديد، هذه الحركية نظريا، لا نهاية لها و من هنا عبارة السميوزيس اللامتناهية، إنها أيضا حركية لبناء و صياغة العلامة نفسها، و هي مشتقة من الإغريقية و تعني(فعل التدليل)

قدم هذا المصطلح(السميوزيس) من قبل الأمريكي(شارل ساندرس بورس) في نص طويل يعود إلى 1907 حيث كُتب هذا النص في سياق نقاش حاد حول تعريفه للبراغماتية. و قد جاء تحديد السميوزيس في المجلد الخامس سنة 1934 و تحديدا في الفقرة 5.484؛ حيث وضح(بورس) فيها مفهوم السميوزيس و أظهر بذلك الأصل اليوناني للكلمة و التي كانت تعني(فعل التدليل) كما كان الفضل للفرنسي(جيرار دولودال) بعد أن ترجم و أدخل نصوص(بورس) للثقافة الفرنسية تحت عنوان كتابات حول العلامة سنة 1978 فنقل كلمة(Semiosis) الإنجليزية و أوجد لها مقابلا بالفرنسية هو(Sémiose) بالمقابل أدخل(أمبرتو إيكو) في كتاباته بدء من القارئ في الحكاية 1985 صفة سميوزيسي ليعين بذلك خاصية سيرورة السميوزيس. (عبد الله بريمي، 2013، ص 169،170)

و يعرف(بورس) السميوزيس على أنها«السيرورة التي يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة، و تستدعي ثلاثة عناصر ينظر إليها باعتبارها الحدود التي من خلالها تستقيم السيرورة و تتحول إلى نسق يتحكم في إنتاج الدلالات و تداولها. وكمثال على ذلك فإن كلمة(شجرة) تدل لأنها تشتمل على العلاقات التالية:

1. متوالية صوتية تشتغل كتمثيل رمزي متعارف عليه عند مجموعة لغوية بعينها(المجموعة اللغوية العربية في حالة كلمة شجرة)
2. موضوع يستند إليه التمثيل من أجل إنتاج الصور الذهنية، وهو ما يشكل أساس المعرفة. فالمعرفة التي لا تستند إلى موضوع لا يمكن أن تكون معرفة.
3. مفهوم يحول الموضوعات إلى صور ذهنية تغنينا عن الوقائع.

إن الترابط بين العناصر الثلاثة، وفق تأليفات دلالية مفتوحة على كل الاحتمالات، هو ما يشكل المضمون الحقيقي للسميوز. فالسميوز لا تقف عند حدود رصد المعنى الأولي الذي يحيل عليه

التمثيل من خلال إحالته الأولى، بل تشير إلى إمكان استمرار هذه الإحالات دون انقطاع إلى ما لا نهاية» (سعيد بنكراد، 2012، ص 258،259)

السيميوزيس عرفت بأنها السيرورة المنتجة للدلالة و ذلك وفق القاعدة الثلاثية التي وضحها(ش.س.بورس) و التي تربط بين(الممثل و الموضوع، و المؤول)؛ فيوضح(بورس) قائلا: إن الانسان لا يمكنه أن يدرك الكون دفعة واحدة بل يتم ذلك عبر مستويات أو عبر إحالات جزئية تتمثل فيما يلي: (وداد بن عافية ، 2009،ص 228)

1. **الأولانية:** يقصد بها وجود الشيء في ذاته ككينونة، بعيدا عن أي السياق أو تحقق أو علاقة مع شيء آخر، و تحيل على الوجود النوعي الموضوعي حسب(بورس) الذي يعرفها بأنها نمط في الوجود يتحدد في كون شيء ما هو كما هو إيجابيا دون اعتبار لشيء آخر، و لا يمكن أن يكون هذا الشيء إلا امكانا. كالاحاسيس: الحزن، الفرح، الألم، و النوعيات، الأملس، الخشن، المائل، المستقيم، الأبيض، الأزرق.
2. **الثانيانية:** هي إدخال الشيء في وقائع محددة ضمن سياق ما ليخرج من دائرة الإمكان إلى دائرة التحقق و الوجود الفعلي ضمن شروط زمانية و مكانية معينة، و من دائرة الاطلاق و اللامحدودية و من الغموض و الابهام إلى الجلاء و الوضوح و من مجرد أحاسيس إلى أحداث واقعية.
3. **الثالثانية:** هي القاعدة أو القانون، إذ لا يمكننا أن نفهم الكون إلا إذا أفرغ في قوالب رمزية ليدرك في شكل مفاهيم، فعملية القولبة تقوم مقام الوسيط بين الإنسان والكون، و هو ما يتحقق من خلال الدين و الأسطورة و الخرافة و اللغة، التي تمكننا من إدراك الأشياء و تضبط علاقتنا مع العالم الخارجي.

فالعلامة عند(بورس) تحتوي في ذاتها: الإمكان، و التحقق، و القانون و من هنا تعرف العلامة عند(بورس) بأنها تقوم على ثلاث ركائز هي: الممثل، الموضوع، و المؤول(والتي تمثل في مجموعها السيميوزيس) و قبل الخوض في ماهية السيميوزيس و كيفية تحققه نتحدث أولا عن العناصر الثلاث التي تقوم عليها العلامة من خلال هذا المخطط: (نفسه، ص 229)

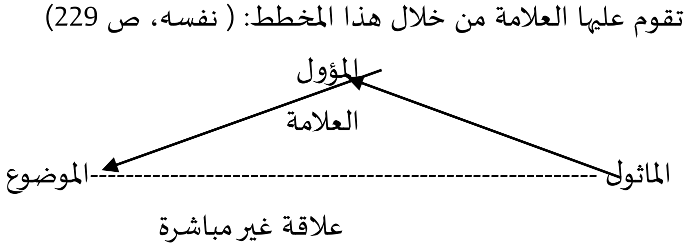

يشير الخط المتقطع أسفل المثلث إلى عدم وجود علاقة مباشرة بين الماثول و الموضوع، فلابد من المرور عبر الوسيط الإلزامي المعروف بالمؤول لتتحقق الدلالة.و هكذا يتضح أن العلامة« تضع للتداول ثلاثة عناصر: ماثولا يقوم بالتمثيل(أول) و موضوعا للتمثيل(ثان) و مؤولا يضمن صحة العلاقة بين الماثول و الموضوع(ثالث). و لا يمكن أن يستقيم وجود أية سيرورة سميائية إلا من خلال وجود هذه العناصر الثلاثة التي تشكل في تضافرها السيرورة التي يطلق عليها بورس السميوز» (سعيد بنكراد، دت، ص 107)

و كما لا يخفى على القارئ أن(بورس) هو من أعطى دفعا جديدا لدراسة العلامة ؛ حيث شكلت دراسة(بورس) توجها جديدا لدراسة العلامة مخالفا لما عرفته الدراسات اللغوية التقليدية التي تعاملت مع العلامة اللغوية و المعنى بمنطق الثبات، و ما طرحه(بورس) حول فكرة السيميوزيس/ التأويل اللامتناهي فتح آفاقا جديدة لدراسات جديدة تمثلت في ما جاء به كل من(إمبرتو إيكو) و(جاك دريدا) و مثل هذه الدراسات قدمت تصورات و شروحات لفكرة العلامة عند(بورس)، و لا يتسع المقام لشرح كلا الفكرتين في هذا المقال إلا أن ما يهما هنا هو ما قدمه(إمبرتو إيكو) أثناء شرحه لنظرية(بورس) و حديثه عن محدودية السيميوزيس و القبض على المعنى النهائي للعلامة و ذلك ضمن ما عرف بتيار السيميائيات الثقافية و التي تقوم على توظيف« مقولة المؤول النهائي المستندة إلى مقولة العادة(habitude) و التي يسميها(إيكو) بعالم الخطاب» (أحمد العزري، دت، ص 188)

ما يوضحه(إيكو) أن(بورس)(فيلسوف غائي براغماتي) لذلك فإن السيميوزيس عنده تخضع لشرط التواصل الذي يفرض وجود مدلول مباشر و هو ما سبقت الإشارة إليه فيما عرف بالعادة« و تبقى العادة وحدها هي التي يمكن أن تكون علامة من وجهة نظر ما، و التي لا تحتاج بَعدُ إلى مؤول منطقي، إنها تمثل التحديد الحي، إنها المؤول المنطقي النهائي و الحقيقي» (عبد السلام إسماعيلي علوي،2019، ص 101) و عليه فإن للسياق الذي يدرج فيه الخطاب/النص الدور الحاسم في القبض على المعنى النهائي و المقصود.

لا يزال الخطاب/النص يتطلب الكثير من الدراسات للوصول إلى فك رموزه و فهم كنهه و الكشف عن دلالاته و معناه، و عليه فالنظريات التي تعالج الخطاب/النص ما تزال في تجدد مستمر و كل نظرية إلا و تترك بصمتها من خلال منهجها في معالجة الخطاب/النص و من جملة النظريات الحديثة التي ولجت عالم الخطاب/النص نظرية الفضاءات الذهنية .(الأفضية الذهنية) لصاحبها اللساني العرفنيّ(فوكونياي) و قبل التطرق لهذه النظرية و أهم مصطلحاتها تجدر الإشارة إلى التيار

الذي تنتمي إليه هذه الدراسة و المتمثل في اللسانيات العرفنيّة، هذا التوجه اللساني« يمثل تيارا(مدرسة) لسانيا حديث النشأة، يقوم على دراسة العلاقة بين اللغة البشرية و الذهن و التجربة بما فيها الاجتماعي و المادي البيئي، و قد نشأ هذا التيار مناهضا للشكلنة الغالبة على اللسانيات العرفنيّة في دراسة اللغة و العرفنة عند الانسان» (الأزهر الزناد، 2011، ص 21).

و نظرية الفضاءات الذهنية(Mentel Spaces Theory)« هي نظرية نفسية عرفنيّة للساني الفرنسي جيل فوكونياي، و هي نظرية تنتمي إلى الأنساق اللسانية المفتوحة على المخاطب و المقام، و يفسر فوكونياي وفق هذه النظرية العلاقة بين بعض الظواهر اللغوية و العمليات الذّهنيّة التي تتيح تفسير كيفية اشتغال تلك الظواهر داخل الأبنية اللّغوية التي تحتويها من قبيل ظواهر الإحالة و الدلالة و المطابقة النحوية و بعض حالات الإضمار.»(لطفي الذويبي، 2016، ص 14).

فإذا كان اهتمام(بورس) في إطار ما عرف بنظرية العلامات قائما على الاحالات التي تقدمها كل علامة لغوية؛ حيث يفهم المعنى بنوع من الحوسبة تجمع به معاني المفردات و المركبات المكونة لها باعتماد ما يكون بينها من التوليف الداخلي، كما يعتمد أيضا على مبدأ التّركيبيّة أساسا تثبت به الطاقة الإبداعية، و هي ما به ينتج عبارات جديدة و تفهم على أساسه،و على سبيل المثال العبارتين التاليتين:

- ✓ الطقس جميل.
- ✓ ذهب زيد إلى المدرسة.

هكذا يكون معنى الجمال مسندا إلى الطقس على أساس الإخبار، و الذهاب كائنا من زيد محدثا له يطلب المدرسة اتجاها، و عليه يكون المعنى الكلي جمعا للمعاني الجزئية المدلول عليها بالعلامات اللغوية المكونة له. (ينظر: الأزهر الزناد، 2011، ص 39).

بيد أن هناك عبارات تعارض هذا المبدأ في المعالجة من قبيل« العبارات الجاهزة و الأمثال التي لا يكون معناها الكلّي جمعا لمعاني ألفاظها، و ذلك من قبيل" الصيف ضيّعت اللبن" (بمعنى: فات الأوان)» (نفسه، ص 39) و مع هكذا أمثلة يفهم أن المعنى لا صلة له بمعاني الوحدات اللغوية المكونة له.

اعتمادا على مثل هذه المداخل انطلقت اللسانيات العرفنيّة في معالجتها للخطاب/النص، فاستطاعت و بمختلف فروعها اثبات عدم كفاية مبدأ التركيبيّة و التوليفية في الوصول إلى فهم

الخطاب/ النص« على أساس أن البنية اللغوية خطاطية في بنائها و استعمالها و فهمها» (نفسه، ص 39)

جرى الحديث فيما سبق عن نظرية العلامات و عن آليات اشتغالها و كيف أن العلامة تقوم على ثلاثة أركان متمثلة في(الماثول، و الموضوع، و المؤول) و كذا التطرق لسيرورة الدلالة/ السيميوزيس، إلا أن هذا لا ينفي أن عملية التأويل قد تصل إلى المعنى النهائي(المعنى المقصود من الخطاب)، و فيما يلي و ضمن تيار اللسانيات العرفنيّة فإن نظرية الفضاءات الذهنية(الأفضية الذهنية) تسعى إلى تقديم الآليات و الأدوات المعرفية التي تساعد في الوصول إلى المعنى/الدلالة، و تحقيق كفاءة تفسيرية أقوى لفهم مقصد المتكلم.

إن نظرية الفضاءات الذهنية تقوم على« دحض مسلمة منطقية يعتقد أصحابها أن الدلالة اللغوية يمكن الإحاطة بها باعتماد أدوات من المنطق الشكليّ، فهو يرى[فوكونياي] أنها أدوات قاصرة في تفسير الكثير من الظواهر اللغوية، و يسعى إلى إقامة بديل نظري لها يقوم على طاقة الذهن البشري عوضا عن طاقة الحسابات الرياضية التي يستعملها المناطقة» (الأزهر الزناد، 2009، ص 197) و يرى فوكونياي أيضا«أن الكثير من الأبنية تنطوي على إشكالات في الفهم و التأويل و تكون فيها الدّلالة محدثة للّبس و يكون التّحليل الشّكلي التركيبيّ غير قادر على تفسيرها، و اعتبر أنّه بالإمكان إعادة قراءة تلك الأبنية و تفسيرها بواسطة " فضاءات ذهنية " تنتظم و تترابط في ضوء قرائن تركيبية و مقامية و ثقافية و اجتماعية تمكن المخاطب من الاهتداء إلى الدلالة المقصودة و إلى المحال عليه داخل تلك الأبنية»(لطفي الذويبي، 2016، ص 14)

و في هذا إطار لم تعد تُدرس الدلالة اللغوية بالاعتماد على أدوات المنطق الشكلي: أي من خلال بنية الجملة الإعرابية، و إنما تنبه (فوكونياي)« لظاهرة متواترة في الخطاب تحيل العبارة على معناها أو مرجعها إحالة غير معهودة إذ لا يمكن تفسيرها بمداخل معهودة: من ذلك ما يمكن سماعه في بعض المطاعم من تسمية الزبون بما طلب من مأكل أو مشرب من قبيل: صحن السمك يريد بعض الليمون. حيث يطلق" صحن السمك" على شخص يتناول السمك» (الأزهر الزناد،2009، ص 198) و من أمثلة ذلك أيضا إذا قال النادل لأمين الخزنة أو قابض النقود:

- غادرت جعة الأوملات دون تسديد الحساب.

فإن البنية تبدو لاحنة دلاليا و إحاليّا لأن النسبة المعنوية غائبة بين الحدث و صاحبه و بين صاحب الحدث و حاله، لكن هناك رابطا ذهنيا عرفنيّا يجعل المخاطب يهتدي إلى الدلالة المقصودة و الموضوع المحال عليه داخل تلك البنية. فالمخاطب قابض النقود يعرف أن هناك امرأة زبونا ترتاد المطعم اعتادت تناول جعة الأومليت، و تواتر مثل هذه البنية في المطاعم كما في: ربع الدجاج يريد الهريسة...[إلى غير ذلك من الأمثلة على هذه الشاكلة، و توجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل، كتسمية

الزبون في محطات غسيل السيارات بنوع سيارته...إلخ و عليه فإن للسياق دور في الإحالة إلى المعنى المقصود].

و المتكلم بهذه الأبنية عوّض تسمية الأشياء المحال عليها بأن تجاوز قيود الألفاظ و التركيب و نقل المخاطب من فضاء أوّل يمثل الواقع إلى فضاء ثان ذهني متخيّل فكّ ألغاز البنية و كشف عن المحال عليه و الدّلالة المقصودة:

فضاء الواقع ----------------------------------- فضاء ذهني

و يذكر فوكونياي مثالا آخر يوضح به مفهوم الفضاء و يؤكد مبدأ الانتقال الذهني من مجال إلى مجال أو من إطار إلى إطار أو من فضاء إلى فضاء.

في رسم لوقا تمتطي ساحرة قارنا.

فالفضاء الأول هو الفضاء الواقع الذي يرسم فيه(لوقا) اللوحة أمّا الفضاء الثاني فهو افتراضيّ بناه الرسام في خياله و قد جسده في اللوحة و صار المخاطب على علم بواسطة القرينة التركيبيّة(في رسم لوقا) و هذه القرينة مثلت رابطا نقلنا من فضاء أول إلى فضاء ثان»(لطفي الذويبي، 2016، ص 15،14) و في هذا السياق أشار فوكونياي إلى أن الفضاءات الذهنية قد تتكاثر داخل الجملة الواحدة أو النص الواحد، فيكون بذلك فضاء أول مولدا لفضاء ثان و ثان مولد لفضاء ثالث و هكذا و تكون هذه التوّلدات للفضاءات الذهنية بناء و انطلاقا من الفضاء الأساس(الأول) وصولا إلى الفضاءات المتفرعة عنه فنتحصل على شجرة الفضاءات الذهنية؛ حيث أطلق فوكونياي على« الفضاء الأول الفضاء الأب و على الفضاء المولد الفضاء الابن»(ينظر: الأزهر الزناد، 2011، ص 209)

و يمثل فوكونياي لمثل هذا التوالد من الفضاءات الذهنية بالمشجر التالي:(لطفي الذويبي، 2016، ص 16)

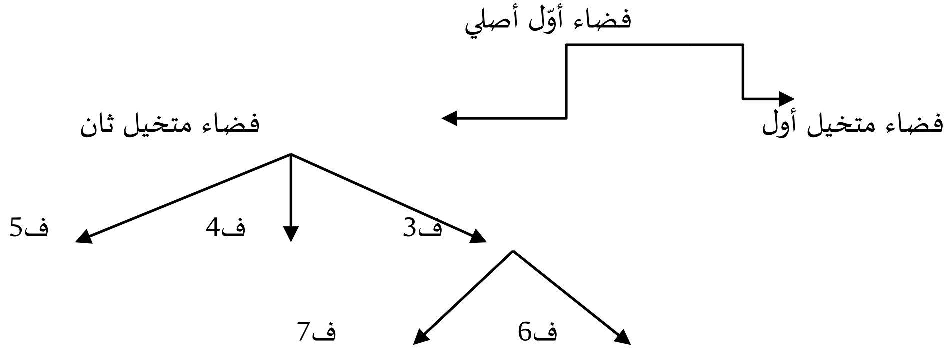

فالخطاب/ النص حسب فوكونياي يقوم على وجود فضاء أساس(الفضاء الأب) و الذي يمكن أن يمثل المنطلق داخل الخطاب فينظر من خلاله إلى سائر الفضاءات فينظمها و يرتبط معها، و يسمي

الفضاء الأساس الفضاء المنظور(Viewpoint) كما يفترض وجود فضاء آخر يمثل مركز الفضاءات و محل عناية المتكلم و منه تتوالد سائر الفضاءات و يسميه الفضاء البؤرة(Focus Space)(ينظر: نفسه، ص 16.)

و يرى (فوكونياي) أننا نستعمل اللغة للحديث عن الأشياء الموجودة كما هي في الكون، أو كما مرت علينا في تجاربنا، كما نستعمل اللغة للتعبير عن أحلامنا، طموحاتنا و عن المستقبل، و ما نتمناه... و غير ذلك من التعابير و فيما يلي نذكر أبنية لغوية تبين بعض أصناف الفضاءات حسب طبيعتها الدّلالية و علاقتها بالواقع :

1. ليت الشباب يعود يوما (فضاء ذهني متمنى)
2. كنت أتمتع بصحة جيدة(فضاء ذهنيّ واقعي مفقود)
3. أريد أن أصبح دكتورا(فضاء ذهنيّ منشود)
4. لو كنت قاضيا لحكمت بينهما بالعدل(فضاء ذهني افتراضي).

و مع أن كل شخص يعبر عن الوجود بكل خلفياته، من خلال نظرته و تجربته الخاصة، إلا أن« جميع البشر يهتدون إلى نفس المعلومات و يعالجونها بطرق مختلفة في سياقات و مقامات مختلفة و فرضية" آثار الأولنة" في علم النفس دليل قاطع على ذلك» (الأزهر الزناد،2009، ص 199) و انطلاقا من هذه الفكرة يجد(فوكونياي)« مدخلا يثبت ضرورة البحث في ما يمكن للذهن أن يقيمه من عمليات ربط في مختلف السياقات و في ما يكون للسياقات المختلفة من آثار في انبناء المعنى» (نفسه، ص 200) و في هذا تأكيد على ما يكون في الذهن من عمليات و آليات تسبق إنتاج الكلام و كذا ما للسياقات و الأفكار و المواضيع التي يريد المتحدث الإفصاح عنها من تأثير في بناء المعنى.

أضف إلى ذلك ما قدمه روبير مارتن(R.Martin) في دراسة حول« الحركة الذهنية التي تسبق حدث التلفظ و رأى أن عالم الاعتقاد الذي يبنيه المتكلم في فكره هو الذي يوجّه عملية فهم البنية اللغوية و تأوّلها عند المخاطب. و قد تواصل هذا التوجه نحو دراسة العمليات الذهنية التي تسبق حدث التلفظ و توجهه مع اللسانيين العرفنيين أمثال جورج لايكوف، و رونالد لانقاكر،و جيل فوكونياي، و غيرهم.»(لطفي الذويبي، 2016، ص 13.)

بناء المعنى و الوصول إلى فهمه يقوم حسب(فوكونياي) و في إطار نظرية الفضاءات الذهنية على مبدأ عام نصه« كل مفهوم يقتضي في تمثيله فضاءين ذهنيين، يكون الواحد منهما أوليا و الآخر تابع له» (الأزهر الزناد،2009، ص 201) و هذا ما تطرقنا له في الصفحات السابقة؛ حيث إن هناك أمثلة كثيرة تثبت صحة هذا المبدأ و على سبيل الذكر لا الحصر التعرف على الأماكن، أو الشخصيات من خلال صور أُخذت لها في زمن غير الزمن الذي تعرض فيه؛ أي تكون قد أخذت في زمن متقدم، فهذه الأمثلة تحتوي على فضاءين ذهنيين، قد تكون فيهما المطابقة كلية أو جزئية.

و هكذا يمكن القول أن **الفضاء الذهني** هو« جملة المعلومات المنظمة المتعلقة بالمعتقدات و الأشياء و يتكون من عناصر و ليس من الضروري أن تكون لتلك العناصر مراجع، و قد يحدث أن يطابق فضاء ذهني حالا من حال الأشياء في الكون (مطابقة كلية أو جزئية) فيكون التطابق بين عنصر من عناصره و شيء في الواقع و يكون التطابق بين خصائص ذلك العنصر و خصائص الأشياء الواقعية. و يمكن أن يمثل الفضاء الذهني عالما متخيلا منبنيا بوجه من الوجوه فليس من الضروري أن يكون خاضعا للتقييم العقلي المنطقي فيعتبر مستقيما أو غير منطقي» (نفسه، ص 206)

و عندما نكون أمام فضاء ذهني لا يرتبط بالواقع و التجارب المعاشة، فإننا حتما أمام فضاء ذهني مبني على عالم متخيل. «و ذلك من قبيل القصص و الخرافات و الخيال العلميّ و الأشعار تنشأ فيها أفضية ذهنية من قبيل آخر قد لا تكون ذات صلة بالواقع أو حال الأشياء في الكون و التجربة، فالحكاية من ألف ليلة و ليلة تقدم جملة من العوالم هي أفضية ذهنيّة قائمة بذاتها في الذّهن تتأسس بها الحكاية مضمونا عرفنيّا متماسكا متناسقا منتظما.»(الأزهر الزناد،2011،ص 206)

و حسب(فوكونياي) فإن أبرز ممثل لبناء الأفضية الذهنية هو النشاط اللغوي كما يوضح أيضا أن« بين اللغة و العالم الفيزيائي سيرورة بناء واسعة. و هذه السيرورة لا تعكس العبارات اللغوية التي تنشئها، و لا العالم الحقيقي الذي تعتبر الأوضاع فيه أهدافا للعبارات التي تنطبق عليها. هذا المستوى الوسيط(أو البيني) يسميه(فوكونياي) المستوى المعرفي» (عبد المجيد جحفة، 2000، ص 50) و المستوى المعرفي يُبنى عند استعمال اللغة، و يتم تحديده مباشرة من خلال اللغة التي تستخدم في انتاج الخطاب، مع الاستعانة بمجموعة من التلميحات غير اللغوية و التي تشمل(الخلفيات و التنبؤات و التلميحات) أي الاستعانة بالسياق. و يعني هذا أنه« لا يكون للعبارات اللغوية معنى في ذاتها. فالعبارات لا تحمل محتوى قضويا، بل على عكس ذلك، فقد تعتبر العبارات اللغوية(تعليمات) يتم تنفيذها بإزاء نوع معين من البناء الذهني في المستوى المعرفي» (نفسه، ص 50)

ننطلق من أن العبارات تعد تعليمات تساهم في بناء الفضاء الذهني و نسلم أيضا بالرأي القائل إن الأفضية الذهنية « بناية معمارية عالية يكون لها أساس فطوابق يقوم اللاحق منها على سابقه عمادا و ينضاف إليه، يكون في الخطاب أفضية أساس و أخرى منضافة إليه قائمة عليه» (الأزهر الزناد، 2011، ص 207)و هذا مثلما تمت الإشارة إليه سابقا في المشجر الذي اقترحه فوكونياي لتوالد الفضاءات الذهنية، و هكذا فإنه أثناء استعمال اللغة للتواصل و بناء النصوص/الخطابات نكون بصدد بناء الفضاءات الذهنية و كل هذا يعتمد على جملة من الآليات تعرف ببناة الأفضية.

بناة الأفضية: هي آليات يستعملها المتكلم ليجرّ سامعه إلى تأسيس فضاء ذهني جديد. هي العبارات المتحققة في الخطاب(مركبات أو وحدات نحوية) تؤسس فضاء ابنا لفضاء أساس يترابطان بوجه من الوجوه، ولا تحمل هذه الأدوات بناة الأفضية في ذاتها معلومات عن الفضاء الجديد، و هي

في اللغات شتات من الأسماء و الصفات و الظروف و الحروف و كل ما يعبّر عن الزمان و المكان و غيرهما من الأطر الافتراضية.و لو مثلنا لذلك فيما يتعلق بظرف الزمان و قلنا: بالأمس كنت في حال جيدة. فظرف الزمان(بالأمس) لا يحمل في نفسه معنى عن الفضاء الجديد و الذي هو (اليوم لست جيدا).

تشتغل بناة الأفضية في جميع مفاصل الخطاب فإذا ما كانت في بدايته أسّست فضاء ذهنيا أساسا و إذا ما وردت في غضون الخطاب أسست فضاء جديدا ينضاف إلى سابقيه. و دورها في جميع تلك المواطن واحد هو الإشارة إلى نشأة فضاء جديد. و لا يعني هذا أنّ وجود الأدوات بناة الأفضية ضروري لقيام الفضاء الواحد و إنما قد ينشأ الفضاء و يتأسس بأدوات غير لغوية من قبيل الهيأة أو النصبة أو عناصر مقام و ما إليها» (نفسه، ص 208) و من جملة الأدوات التي تنبني بها الأفضية الذهنية ما يعبر عن الإمكان كالتمني، و التوقع، و الشرط و ما يلابسه من الظروف، و ذلك من قبيل حروف الشرط؛ حيث تبني فضاء ذهنيا يكون فيه مضمون العبارة بعدها قائما و إن افتراضيا.و من هذه الأدوات بناة الافضية على سبيل الذكر لا الحصر «البسملة و ما إليها من فواتح الخطب و أسماء الإشارة إلى المكان من قبيل(هنا...، و منها يحدثكم فلان) في المراسلات الإعلامية و (كان يا ما كان في قديم الزمان) أو (يحكى أن) أو (زعموا أن) و ما إليها من الخرافات أو الأمثال. و منها سلسلة الإسناد في الاخبار، و غير ذلك كثير.»(نفسه،ص 208)

و توجد الكثير من الأمثلة التي توضح هذه القضية(بناة الأفضية) و مثال على ذلك:(في الصورة تبدو خولة أجمل) فالفضاء الأساس هو عالم الواقع(ملامح خولة كما هي معروفة الآن) و عليه تبنى عبارة(في الصورة) فضاء ابنا هو عالم الرسم المعروض في اللوحة أو العمل الفوتوغرافي بما فيه من ملامح مدركة الآن، و يترابط الفضاءان تداوليا بتطابق خولة في الواقع بنظيرتها في الصورة بتوسط مبدأ الاهتداء (الأزهر الزناد، 2009، ص 207). كما أن أفعال الحركة هي الأخرى تعطينا توضيحا أكثر حول دور الفضاءات الذهنية خاصة إذا ما تم مقارنة المعنى المعجمي لفعل معين مع ما يمكن أن يكتسبه هذا الفعل أو ذاك من خلال توظيفه في سياقات مختلفة و اعتمادا على خلفية المتلقي المعرفية و تصوراته الذهنية أيضا.و يمكن « الاستدلال على أن الأهمية القصوى لهذه الأفعال تنتج عن كون المعنى، إلى حد ما، يدرك بوصفه صورا ذهنية(mental pictures) و يعالج المعنى بوصفه ذوات فضائية» (عبد العالي العامري، 2019، ص 69).

و إذا ما اقترنت هذه الأفعال بحروف الجر فإنها تنفي الالتباس؛ حيث« تعبر حروف الجر في أصل معناها عن علاقات فضائية، و من بين هذه العلاقات ما يفيد الحلولَ و منها ما يفيد الابتعاد عن الحلول، و منها ما يفيد الاقتراب من الحلول و تسمى العلاقة الأولى علاقة المكان، و نستعمل فيها الحروف من قبيل(الباء، مع، على) و تسمى العلاقة الثانية انتهاء الغاية، و نمثل لها بالحروف من

قبيل:(إلى، اللام، حتى) بينما تسمى العلاقة الثالثة ابتداء الغاية، و نمثل لها بحروف من قبيل: (من، و عن)» (صالح غيلوس، 2017، ص 113)

و من الأمثلة التي توضح أن الصور الذهنية تلعب دورا مهما في الوصول إلى المعنى ما نجده في تفسير دلالة فعل الحركة(أتى) في قوله تعالى: ﴿هَل أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَم يَكُن شَيئًا مَذكُوراً﴾(الإنسان:1) فـ"هل" في هذه الوحدة انزاح عن دلالته ليعبر عن الحرف اليقيني "قد" و انزاح معنى " أتى" إثر هذا التجاوز المنزاح ليدل على المرور و المضيّ فيكون المعنى قد مرّ على الإنسان حين من الدهر لم يكن للإنسان فيه ذكر، أما الاستماع فهو من المعاني التي أخذ المؤشر الفعلي " أتى" نصيبا وافرا منه في كثير من الآيات منها قوله تعالى:﴿هَل أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إبرَاهيم﴾(الذاريات:24)، و قوله تعالى﴿ هَل أَتَاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ﴾(البروج: 85)

فالإتيان الذي يدركه الذهن في هذه السياقات النصية يمكن التعبير عنه بدائرة الحركة الصوتية و النقل التعبيري ففي هذه الآيات لا يوجد تحقق المجيء للكينون البشري أو الكينون الوجودي على الطرق المعهودة، و الاتيان في هذه الأمثلة يتم عبر النقل الصوتي؛ أي ما يصدق عليه التأويل بالاستماع. (ناديا دادبور، و آخرون، 2017، ص 58)

و أثناء عملية التأويل و في محاولة الوصول إلى المعنى المقصود و وفق نظرية الفضاءات الذهنية يتم الاعتماد على **مبدأ الاهتداء**: الذي يعتبر أهم عنصر يعتمد عليه المؤول في الوصول إلى المعنى المقصود، و نعتبره بهذه الصورة موازيا لما عرف عند (بورس) بالمؤول الذي يتوسط بين الماثول و الموضوع، و يذهب(فوكونياي) «إلى أن البنية اللغوية تعكس بكل دقة مظاهر العرفنة البشرية. و من تجليات ذلك قدرة المتكلم على تسمية الأشياء باعتماد ترابطات عرفنية متصلة بالتجربة البشرية تمكن السامع من الاهتداء إلى المرجع المقصود و ذلك عوضا عن تسمية الأشياء في ذاتها. و هي ظاهرة محكومة بمبدأ الاهتداء و تعريفه عند فوكونياي كما يلي: يمكن للعبارة الواحدة تسمي وحدة معلومة من مجال ما، أن تجريَ الإحالة على وحدة أخرى من مجال آخر، تسمى الوحدة الأولى **قادحا** و تسمى الثانية **هدفا** و عملية الإحالة **اهتداء**. و الشرط في قيام عملية الاهتداء أن يكون المجال الثاني مما يمكن الاهتداء إليه عرفنيا من المجال الأول، و أن يكون الترابط بين القادح و الهدف. يتحقق الترابط في أداة أو قرينة ظاهرة.»(الأزهر الزناد، 2011، ص 211) و القبض عن المعنى المقصود عادة ما يكون من خلال العمليات العرفنية التي يقوم بها المتكلم لإنتاج خطابه، و التي يلجأ إليها السامع لفك رموز هذه الخطابات.

و ما يمكن أن **نخلص** إليه في هذه الورقة البحثية هو:

أن المفكر اللساني العرفنيّ(فوكونياي) قد وضع نظرية الفضاءات الذهنية و اعتمد على جملة من التساؤلات و التي بينت أن عملية الوصول إلى المعنى المقصود لا تقوم دائما على البناء الشكلي

للغة، بل تفطن لوجود مداخل غير معهودة في تفسير الخطابات و من الأمثلة التي قدمها (فوكوني) ما يتم سماعه من تسمية الزبون بما يطلبه من طعام، و كذا تسمية الزبائن في محطات غسيل السيارات.

و كذا قدم(فوكوني) الآليات التي يعتمد عليها في الإحالة للمعني و ذلك من خلال ما عرف بمبدأ الاهتداء هذا الأخير الذي يعتمد على عنصري القادح و الهدف و تتوسط بينهما عملية الإحالة(الاهتداء).

اعتبر(فوكونياي) أن المتكلم و هو ينتج البنية اللّغويّة سواء كانت جملة أو نصّا فإنه ينقل مخاطبه بين فضاءات ذهنية مترابطة نحويا و منطقيا تيسّر لذلك الخاطب فهم تلك البنية و الاهتداء إلى الدّلالة المقصودة.

المراجع:

1. أحمد العزري، العلامة اللغوية و اشتغال الدلالة من السيميائية إلى التفكيكية، مجلة الممارسات اللغوية، العدد23، 2014.
2. الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، دار العربية للعلوم ناشرون، تونس، جوان، 2009.
3. الأزهر الزناد، النص و الخطاب مباحث لسانية عرفنية، مركز النشر الجامعي، ط1، 2011.
4. جورج لايكوف و مارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبوقال للنشر، ط2، 2009.
5. سعيد بنكراد، السيميائيات و التأويل مدخل إلى سيميائيات س. ش.بورس، المركز الثقافي الغربي، المغرب، دط، دت.
6. سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها و تطبيقاتها، دار الحيوار للنشر و التوزيع، ط3، 2012.
7. صالح غيلوس، التلقي و الإنتاج في ضوء العرفنيّة تنظير و إجراء، دار البدر الساطع للطباعة و النشر، ط1، 2017.
8. عبد السلام اسماعيلي علوي، حدود الفهم دراسات سيميولسانية في تدبير الاختلاف، الدار التونسية للكتاب، ط1، 2019.
9. عبد العالي العامري، المسارات الفضائية في اللغة العربية، دار كنوز المعرفة، ط1، 2019.
10. عبد الله بريمي، السيميوزيس و التأويل: إنتاج المعنى و بناء الواقع و اشتغال المجتمع، المجلة العلمية للسيمياء(Semat)، ماي 2013.
11. عبد المجيد جحفة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبوقال للنشر، المغرب، ط1، 2000.

12. العيد جلولي، و عبد القادر خليف، القراءة و التأويل من منظور اصطلاحي، مجلة الأثر، العدد 28، جوان 2017.

13. فوزية دندوقة، التأويل و تعدد المعنى، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، العدد 4، جانفي 2009.

14. لطفي الذويبي، قدرة الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية، مجلة العلامة، العدد 03، 2016.

15. ناديا دادبور، و آخرون، أفعال الحركة في القرآن الكريم من واجهة اللسانيات الادراكية " أتى" نموذجا، مجلة دراسات في اللغة العربية و آدابها، العدد 26، 2017.

16. وداد بن عافية، السيمياء التأويلية مدخل إلى سيميوطيقا شارل ساندرس بورس، الأثر مجلة الآداب و اللغات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، العدد8، 2009.